احتفلت الكنيسة في لبنان بتطويب أبونا يعقوب الكبوشي من غزير في ساحة الشهداء، وسط مدينة بيروت، هذه الساحة التي عرفت الموت والحياة، فصارت الشاهد على تاريخ لبنان الحديث.
ولأبونا يعقوب قصة مع هذه الساحة حيث تصارع الموت والحياة في مسيرة ايمان وحبّ رجاء

ساحة الموت والقيامة

الأب نجيب ابراهيم الفرنسيسكاني

في ساحة الموت شاهِد للحياة

كانت البداية حياة جديدة رسمها العليّ عندما نال الأخ يعقوب الكبوشي رسامته الكهنوتية في الأول من تشرين الثاني سنة ١٩٠١. واحتفل بقدّاسه الأول في كنيسة القديس لويس في بيروت، والكنيسة قريبة من ساحة الشهداء.

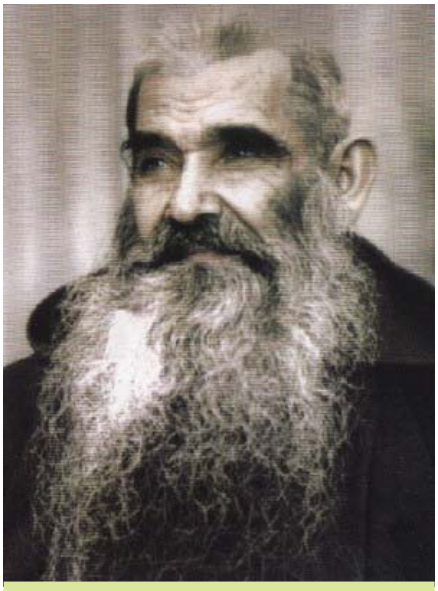

أبونا يعقوب الكبوشي

من بيروت انطلق مرسلاً لخدمة الكنيسة في شتى المجالات. أسّس المدارس الابتدائية في قرى لبنان وكان يزورها سيراً على الأقدام ويتابع بنوع خاص تحضير الاولاد والبنات للمناولة الأولى: «ازرعوا برشاناً تحصدون قدّيسين».

ولكن الحرب أتت بالويلات على لبنان، فخيّم الظلام على ساحة الحياة في وسط بيروت. كانت الحرب العالمية الأولى مصدر بؤس وموت للكثير من اللبنانيين: جوع وموت واضطهاد واعتقال وإعدام. فصار وسط بيروت مقرّ الحكام الأتراك الذين زرعوا الموت فيها، وصارت ساحتها منبر الشهداء الذين أعطوا حياتهم من أجل الحرية.

في آب سنة ١٩١٥ بدأت قافلة الشهداء في لبنان، وكاد الأب يعقوب أن يكون من عدادهم، حسب شهادة تلميذة للراهبات آنذاك:

«كان ذلك، على ما أظن، سنة ١٩١٥، كنت عند راهبات «البزنسون»، في ديرهنّ

الكائن خلف بناية اللعازرية قريباً من ساحة الشهداء حالياً. في أحد الأيام أوصتنا الرئيسة أن نصلّي لأجل الأب يعقوب. نزلت الراهبات إلى الكنيسة وأضأن المذبح وطفقن يصلّين باسطات اليدين بشكل صليب. أما أنا فاستدعتني الرئيسة، وهي ألمانية، وأرسلتني مع رفيقة لي لنحمل رسالة إلى قنصل النمسا. فما إن قرأها القنصل حتى اصطحبنا في سيارته، وكانت أول سيارة أراها في حياتي. ذهبنا معه إلى السرايا القديمة في ساحة البرج، وقد هُدمت اليوم. كان الأب يعقوب واقفاً هناك بين العسكر. هل كان موثوقاً؟ لم أتأكد من ذلك لأني خفت ورُحْتُ أصرخ. فقال لي: «لا تخافي يا ابنتي. لن يقدروا على قتل نفسي. إني لن أنساك عند الله». وتقدم القنصل وقال: «لا تمسكوا هذا الرجل، إنه لي». وأُفرج عنه، ورجعنا سوية في سيارته».

ولم يمرّ وقت طويل حتى تجدّد الاضطهاد ضدّ الأب يعقوب في بيروت. فراحت الدوائر الحكومية تضايقه بشتى الطرق لتحكم عليه، ولكن العناية الإلهية كانت دائماً معه ليُكمل الرسالة. هكذا روى الأب يعقوب الحادثة التي كادت تودي بحياته:

«بعد مرور سنتين على استلامي شؤون رسالتنا الكبوشيّة، أوعزتُ إلى معاوني، الأب فولكانس، وهو كاهن لبناني نظيري – وذلك عند إحدى سفراتي لأتفقد أحوال الثالثين في بتاتر وبحمدون والقريّة وغيرها – وقلت له أن يخفي بندقية قديمة العهد، كان يستعملها أولاد مدرستنا في تمثيل بعض الروايات، وكنت لا أرتاح لوجودها في الدير مع ما هي عليه من الصدأ والقِدم. فرفض اقتراحي أولاً، ولكن لما بيَّنْتُ له ما قد تجرّه علينا من الأهوال، حيث أن جماعة السفّاح جمال باشا يترقّبون الفرص للإيقاع بنا، رضخ للواقع ووعدني خيراً، فسكّن روعي وطمأنَ قلبي. وذهبت أتفقّد رعيتي في الجبل، ثم عدتُ إلى بيروت. ويا لهول ما كانت دهشتي عندما رأيت مدير الشرطة ومدير المعارف وخمسة من معاونيه يجوبون أنحاء الدير. وكان «المتخّت» أول موضع ذهبوا إليه، وكانت البندقية فيه مع بعض قطع من السلاح القديم كالسيف والترس وغيرها من الأشياء التي تُستعمل في تمثيل الروايات. وإذ لم يعثروا على شيء، أمعنوا في التفتيش، فوجدوا بعض الصناديق الملأى بالصكوك والحجج والاتفاقيات القديمة التي لا قيمة لها. فسألوني عنها، فقلت: لا أعلم. فحملوها مع سجلات العماد والدفن والزواج، وذهبوا دون أن ينبسوا ببنت شفة.

«لم يمضِ على الحادث أسبوعان حتى أعاد هؤلاء الكرّة، وحملوا من ديرنا، في عودتهم، صناديق عديدة مملوءة كتباً، كان الرؤساء السابقون قد تركوها مرغمين، بسبب قصر الوقت الذي أُعطي لهم قبل سفرهم (وهم فرنسيون أُجبروا على الرحيل من البلاد). فسألوني عن

مضمونها. فقلت: «لا أعلم، هكذا وجدتها لما استلمت الدير ولا تزال في مكانها كما هي».

قالوا: «أنت تكذب».

قلت: «الحمد لله إنني إلى الآن لم أكذب، وإنني أفضّل الموت صادقاً على أن أعيش كاذباً».

فهزّ مديرهم رأسه متمتماً هذه الكلمة: «سنرى»، وخرجوا. وعلمت فيما بعد أنهم فحصوا تلك الكتب والصناديق فوجدوها مغطّاة بالغبار الكثيف، مما يؤكّد أنّها لمْ تستخدم منذ مدّة ولمْ يتم نقلها حديثاً من مكتبة الدير التي ختموا جميع أبوابها بختمهم الخاص، وكانوا اعتقدوا أنني فضضت الأختام فاستوجبت العقاب.

وهكذا نجوت، مؤقتاً، بعون الله، وتركوني حتى أول أسبوع الآلام المقدّس من سنة ١٩١٧، حيث دُعيت للمثول أمام مدير الشرطة. فسألني عن اسمي رجل أظنّه من المباحث، فأعطيته إيّاه. فأخرج جدولاً بأسماء كثيرة، وكان اسمي في طليعة الأسماء، فتلاه قائلاً: الأب يعقوب الكبوشي؟ فأجبته: نعم. قال: أدخل إلى هنا، وأومأ إلى غرفة محاذية، فدخلت وجلست بين جنديين أضرع إلى مار الياس النبيّ ليدافع عني في مثل هذه الصعاب. وبعد مضي ساعتين وأكثر على هذه الحال، نُقلت إلى غرفة ثانية، حيث وجدتُ بانتظاري، ما يزيد على العشرين شخصاً.

فسألني أحدهم: هل أنت فرنسيّ؟

أجبت: كلا.

قال: هل تحب الفرنسيين؟

قلت: أحب الفضيلة أينما كانت، ولو على أنف خنزير.

قال: أتحسن التركية؟

قلت: لا.

قال: إن حضرة الرئيس أمر بإحضارك إلى هنا لكي يراك. والآن يمكنك الذهاب إلى كنيستك ريثما تُستدعى مرة أخرى.

فخرجت مسرعاً لأنني تحققت

جانب من الحشود التي اجتمعت للاحتفال في ساحة الشهداء، وسط بيروت

أنهم سجّلوا إسمي مع الذين ينوون نفيهم. شكرت النبي إيليا لأنّه تشفّع بي عند الله، ونجّاني من أولئك المتعنتين».

كان الحاكم العثماني يحاول الإيقاع به، لكنّه غيّر رأيه عندما اكتشف صدقه وبراءته، حتى أنّه طلب منه أن يجد له معلّمة لابنته. ولبّى الأب يعقوب رغبته، وأيقن أنّه لن يعود يُلاحق، فراح يعمل جاهداً في خدمة رعية بيروت [1].

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، تابع الأب يعقوب العمل في حقل الرسالة وشعاره الأول: «صليب الرب، حبيب القلب». فرفع الصليب على تلال لبنان وأسّس راهبات الصليب لمواصلة رسالة الخدمة في المدارس وبيوت الرحمة من أجل كاهن عاجز ومعاق متروك.

سُمّيت ساحة بيروت «ساحة الشهداء»، فرُفع نصب فيها يمثّلهم وهم يحملون شعلة الحرية والاستقلال. فحلّ نور بعد ظلمة.

ولم يمضِ ربع قرن على انتقال الأب يعقوب إلى الراحة الأبدية، حتى عادت طبول الحرب تُقرع في لبنان. ورجعت ظلمة العداوة حيث كان يشعّ نور المحبّة. وارتفع جدار المتاريس والفرقة مكان مساحة الحبّ والتلاقي.

متاريس الحرب في ساحة التلاقي

اندلعت الحرب الأهلية في لبنان سنة ١٩٧٥، فكانت حرب الآخرين في وطن العيش المشترك والتفاعل الحضاري بين الأديان. وأصبحت ساحة الشهداء خط نار بين بيروت الشرقية وبيروت الغربية. لم يعدْ باستطاعة المدنيين الوصول إلى وسط المدينة الذي كان قلب العاصمة النابض بالحياة. الأسواق على اختلافها، والمراكز التجارية والمالية والثقافية وحتى الدينية، ناهيك عن ساحة النجمة ومجلس النواب، كلّها في وسط بيروت تتحلّق حول ساحة الحرية، ساحة الشهداء. كما كانت ايضاً مركز انطلاق السيارات والباصات إلى كل انحاء لبنان. فكانت بيروت عاصمة لبنان وساحة الشهداء عاصمة العاصمة، التي يؤمّها كلّ لبناني من كلّ الطوائف، فصارت الساحة مكان اللقاء والتفاعل الاجتماعي الذي أثمر ثقافة حوار فريدة من نوعها ليس في الشرق وحسب، بل في العالم كلّه.

ولكنّ الحرب أجبرت الناس على الفرقة، فانهزمت حضارة المحبة ليحلّ مكانها فراغ ودمار وحواجز. لم يعد باستطاعة الناس الوصول إلى ساحة الشهداء، وبالتالي انحصر الناس كلّ في بقعة ضيقة من الوطن. فمات التفاعل الحضاري الذي هو في أساس كلّ تطور اجتماعي.

---

١ راجع: الأب سليم رزق الله، المكرَّم أبونا يعقوب الكبّوشي، جونية ٢٠٠٤.

فالكنيسة التي عاش فيها الطواباوي أبونا يعقوب وخدم رعيتها، والتي تقع في وسط بيروت، أي كنيسة القدّيس لويس الملك، شفيع الرهبانيّة الثالثة الفرنسيسكانية، أُخليت من الأخوة الكبوشيين، وحلّ بها الدمار، مثل كنائس وسط بيروت ومساجده وكلّ معالمه.

أما كنيسة الفرنسيسكان التابعة لحراسة الأرض المقدّسة فبقيت مفتوحة للمؤمنين طيلة سنوات الحرب، لأنّها تقع في طرف الشارع المؤدّي إلى وسط بيروت. فكان موقع الكنيسة آخر مكان يمكن الوصول إليه من الجانب الشرقي للمدينة. وبسبب موقعه القريب من خط النار، عاش الأخوة أياماً، بل سنوات، صعبة من الخوف وأهوال المعارك القريبة.

لم يكن للحرب البغيضة الكلمة الأخيرة في مسيرة هذا البلد. فحلَّتْ سنة ١٩٩٠ ليحلّ سلام ناقص أوقف المعارك دون أن يعطي كامل الاستقلال لهذا البلد. لكنّ حبّ الحياة الذي تميّز به اللبنانيون، دفعهم للاشتغال في ورشة إعمار غيّرتْ معالم الوسط التجاري لمدينة بيروت. وها هي بيروت تقوم من جديد لتلبس حلّة الجمال والخير والتلاقي بين كلّ الناس. ولمْ تلبس ساحة المدينة هذه الحلّة لو لم يسدل عليها رجل السلام ثوب الحقيقة.

كلمة الحق في وسط بيروت

قالها البابا يوحنا بولس الثاني في زيارته التاريخة إلى لبنان سنة ١٩٩٧، إذ قال في عظته التي ألقاها خلال القداس الذي احتفل به في وسط بيروت، قرب المرفأ:

«في هذا الحفل الفريد، نريد أن نحدث العالم عن اهمية لبنان، ورسالته التاريخية التي اضطلع بها على القرون: لقد برهن، باعتباره بلداً للعديد من الطوائف الدينية، أن هذه الطوائف المختلفة يمكنها ان تعيش معاً في سلام وأخوَّة وتعاون، ولقد برهن أنَّه يمكن احترام حقّ كل إنسان بالحرية الدينية، وأن الجميع متَّحدون في محبتهم لهذا الوطن الذي نضج على مرّ القرون، محافظاً على إرث آبائهم الروحي، وبالاخص إرث القديس مارون.

نحن هنا في المنطقة التي وطَأتها، منذ الفي سنة، قدما السيد المسيح، مخلص العالم... إن ابن الله نفسه كان أول من بشّر اجدادكم. وهذا امتياز خارق!»

وفي العظة نفسها ذكّر الحاضرين بساحة الشهداء:

«واني لا أنسى أنّا مجتمعون بالقرب من قلب بيروت التاريخي، بالقرب من ساحة الشهداء، ولقد سمّيتموها أيضاً «ساحة الحرية» و«ساحة الوحدة». أني لمتأكد أن آلام السنوات المنصرمة لن تكون باطلة: بلْ ستقوّي من عزيمة حريتكم ووحدتكم».

فكان لكلمات قداسة البابا الوقع العظيم في النفوس، إذ سُكبت في القلوب لتبقى

الذكرى.

ولكن الشرّير مازال يتربّص بهذا البلد، إذ راح الموت يحصد من جديد شهداء الحرية، لتصبح الساحة من جديد منبراً لرفع الصوت عالياً من أجل الحقيقة والحرية. كلمة حقّ قالها اللبنانيون على مختلف مذاهبهم. وراحت الأزمات ترفع الجدران من جديد في ساحة التلاقي، وكان اعتصام وفرقة وخلاف، لم ينتهِ إلاّ باعجوبة.

صورة أبونا يعقوب تعتلي المذبح

ارفعوا الخيم من الساحة

قالها بعض القادة السياسيين يوم ٢١ ايار ٢٠٠٨، طالبين من المعتصمين في وسط بيروت إنهاء الاعتصام، لأن خيوط المحبّة والاتفاق جَمَعتْ من جديد ما كان ممزقاً. في ذلك اليوم بالذات، وفي ساحة «المدينة والكون»، في باحة القديس بطرس في روما، بارك قداسة البابا بندكتس السادس عشر اللوحة الرسمية للأب يعقوب، الذي سيُعلن طوباوياً بعد شهر. وكأنّ شفاعة الطوباوي الأب يعقوب راحت تعمل من السماء من أجل البلد الذي أحبّه وخدم أبناءه أجمعين هو الذي قال: «طائفتي لبنان والمتألّمين». فكانت الكلمة الأخيرة في باحة الناس، كلمة حياة.

في الساحة قيامة وحياة وصلاة

يوم الأحد ٢٢ أيار ٢٠٠٨، نحن الرهبان الفرنسيسكان خرجنا من ديرنا في بيروت سيراً على الاقدام. كل الطرق صارت ساحة للمؤمنين الذين أتوا من بعيد للاشتراك باحتفال التطويب، إذ منع الجيش عبور السيارات. وما هي إلا ثوان ورأيتنا في بحر من البشر ينشرون الحياة في الساحة حاملين الأعلام واللافتات وعليها صور أبونا يعقوب واقواله. في الساحة نُصبت خيمة عظيمة، أضحت في ذلك اليوم المبارك سكنى مجد الله. رغم العدد الكبير من المؤمنين، حلّ في المكان صمت عظيم مع بداية الاحتفال بالقداس الالهي، الذي حضره رجال الدين والدنيا. ولم يعد المكان للحكم على بريء، بل للإعلان بأن الأب يعقوب طوباوي يشفع بالمؤمنين ويدفعهم بسيرته لاتبّاع المسيح المصلوب: «يا صليب الرب، يا حبيب القلب».